سيّد الوفاء محمد ﷺ

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد أم عليّ رضي الله عنهما ، دخل عليها رسول الله ﷺ فجلس عند رأسها فقال: «رحمك الله يا أمي ، كنت أمي بعد أمي ، تجوعين وتُشبعيني ، وتعريْنَ وتكسيني ، وتمنعين نفسك طيباً وتطعميني ، تُريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة» ثم أمر أن تُغسّل ثلاثاً ، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافورُ سكبه رسول الله ﷺ بيده ، ثم خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إيّاه ، وكفّنها ببُرْدٍ فوقه ، ثم دعا أسامة بن زيد ، وأبا أيوب الأنصاري، وعمر بن الخطاب، وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللّحد ، حفره رسول الله ﷺ بيده ، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل فاضطجع فيه ، وقال: «الله الذي يُحيي ويُميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ولقِّنها حُجّتها ، ووسّع عليها مُدخلها بحقّ نبيّك والأنبياء الذين من قبلي ، فإنك أرحم الراحمين».

وكبّر عليها أربعاً ، وأدخلوها اللّحد هو والعباس وأبو بكر الصّديق ، رضي الله عنهم[1].

إذن:

فماذا نقول عنك يا من أرسلك الله سبحانه لتتمّم مكارم الأخلاق؟

إن مثلنا ومثلك يا حبيب الله ، كمثل أعرابيٍ ضلّ الطريق في الصحراء ، فلما طلع عليه القمر اهتدى بنوره.

فقال: ماذا أقول لك أيّها القمر؟

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي: ٩/٢٥٦.

أأقولُ: رفعكَ الله؟ لقد رفعك.

أأقولُ: نوّركَ الله؟ لقد نوّرك.

أأقولُ: جمّلكَ الله؟ لقد جمّلك.

ونحن ماذا نقول لك يا رسول الله؟

أنقول: رفعك الله؟ لقد رفعك: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الانشراح: ٤].

أنقول: نوّرك الله؟ لقد نوّرك: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

أنقول: جمّلك الله؟ لقد جمّلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

أجل!

لقد وصفك الله سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وهذا هو السّر الذي جعل من عبّاد الأصنام والأحجار قادة للبشر، ففتح الله عليهم الدنيا، ورفعوا لواء النور والهدى، وأقاموا دولة العدل والتقوى.

وهذا هو الهدف، حيث ارتفعت النفس المسلمة من مدارج النِّمَال في مَدَابِّها، إلى مسابح الأفلاك في أبراجها.

فما أجمل خلقك يا رسول الله، وما أعظم إنسانيتك، وما أروع تعاملك مع الناس:

وُلِدَتْ بمولدك المكارم والنّدى ... والحلم عند الغيظ والإحسانُ

والرفق والصفح الجميل عن الأذىٰ ... والعزّة الشماء والغفرانُ

فأقمتَ للخلق الكريم منارة ... وسما بعذب حديثك التبيانُ

فصل الخطاب لقد ملكتَ زمامه ... ونثرت ما لم يستطعهُ لسانُ

وأتيتَ بالتوحيد حرفاً خالصاً ... لله لم يشرك به إنسانُ

* * *